أما في جانبه الامبريالي، فإن أمن الكيان يعتمد، أولاً وقبل كل شيء، على الانجاز والنجاعة في الأداء. فبالنسبة إلى المركز الامبريالي، الذي يشكل «البلد الأم» بالنسبة إلى اسرائيل، وهو اليوم الولايات المتحدة الأميركية، فإن مسألة استمرار دعمه لها تتوقف على المبدأ الرأسمالي العام (الكلفة والمردود)، وبالتالي، اعتبارات: هل تشكل اسرائيل ذخراً، أم عبئاً لا طائل تحته. فلإسرائيل دور تلعبه في الاستراتيجية العامة، لتجسيد السياسة العالمية لذلك المركز. وما دامت اسرائيل تلعب ذلك الدور، فإن المركز لن يتخلى عنها. وطبيعي أنه كلما ازدادت نجاعة اسرائيل في أدائها لدورها، كلما ازداد تعلق المركز بها، وازدادت، بالتالي، قدرتها هي على تثبيت خصوصية علاقتها به، وبالتالي، موقعها المتميز في استراتيجيته الكونية.

الآلة العسكرية تعوض فشل المؤسسات الاستيطانية

يتضح لنا الآن، وبعد قرن كامل من العمل الصهيوني، وبعد حوالى ثلث القرن على قيام اسرائيل، أن المشروع الصهيوني، بمؤسساته الاستيطانية، قد فشل في تحقيق شقه اليهودي؛ فلا هو نجح في حل «المسألة اليهودية»، ولا هو استطاع تهويد فلسطين وتغييب شعبها، وصولاً إلى تذويبه وتصفية قضيته. ومعروف أن العمل الصهيوني لم ينجح، حتى الآن، في حمل أكثر من ٢٠٪ من يهود العالم على الاستيطان في فلسطين. وبينما كانت الفكرة الأصلية أن تهاجر الأغلبية من يهود العالم إلى فلسطين، وتستوطن فيها، وتشكل دولة قومية على أنقاض أهل البلد الأصليين، وتبسط حمايتها على الأقلية اليهودية المتبقية في الخارج، فإن الذي حدث هو العكس تماماً؛ إذ استوطنت في فلسطين الأقلية فحسب، وظلت هذه بحاجة ماسة إلى دعم الأكثرية في الخارج، بل وإلى حمايتها. ومن هنا، فقد قصَّر الاستيطان الصهيوني في تهويد فلسطين، رغم احتلالها كلها. ونظرة على التوزيع الديموغرافي لهذا الاستيطان تكفي لإثبات هشاشته، وعجزه عن الانتشار في جميع أنحاء فلسطين بكثافة. وفوق ذلك، فإن هذا الاستيطان لم يستطع بناء ذاته والوقوف على رجليه بمفرده. وبالاختصار، فإن الصهيونية لم تستطع، حتى الآن، أن تهود فلسطين، لا أرضاً، ولا شعباً، ولا سوقاً. وتبقى هذه المشكلة هاجس القيادة الصهيونية الأكبر، كما يبدو واضحاً من مداولات المؤتمرات الصهيونية المتعاقبة.

ورغم كل الجهد الذي بذله العمل الصهيوني في تغييب الشعب الفلسطيني، وضرب تماسكه وصولاً إلى تذويب شخصيته وتصفية هويته الوطنية، فإن هذا الشعب قد صمد حتى الآن وأبدى مقاومة عنيفة للمشروع الصهيوني، بكل جوانبه وأهدافه. فالحضور الفلسطيني الواسع اليوم، مادياً على ساحة الصراع، وكذلك حضارياً وسياسياً، هو الرد الحازم والصحيح على الدأب الصهيوني لتغييبه وتذويبه. ومعلوم أن الذي حسم الصراع العربي ــ الصهيوني في فلسطين هو الآلة العسكرية الصهيونية، وليس المؤسسات الاستيطانية بنشاطها التراكمي. والأوضاع الشاذة التي يعيشها الشعب الفلسطيني، وكذلك أرضه الوطنية، قد جاءت نتيجة الحسم العسكري أصلاً. فقد طرد هذا الشعب من أرضه وشرد، وكذلك استعمر واحتل، ليس بفعل نجاح «الوكالة اليهودية» في اغراق فلسطين بالمهاجرين، ولا بفعل «الصندوق القومي اليهودي» في امتلاك كل الأرض